كتاب الخبز

كريم عبد السلام

كتاب الخبز

2010

I
ناسُ القمر الساخن

فى بلادى
عندما تسقط كسرةُ خبزٍ
تُصالح بالُقَبل

من أجله ،
دقتْ الجارةُ باب جارتها التى تكرهها،
فى منتصف الليل ،
بعد أن وضعتْ أكبر ابتسامة ممكنةٍ على شفتيها ..

لقد طلب الزوجُ المنتشى رغيفاً
قبل أن يطارحها الغرام

من أجله ،
ينادى بائع البوظة فى شارعنا :
أنا ربُّ الأرغفة المهملة
ثم يسقينا ضوءاً ورغبات قديمة ،
تظهر ببطء
ونحن نمد أيدينا إلى أقرب النساء من أصابعنا

بسببه ،
يستلقى الصبية والبنات على أسطح منازلهم
شبعانين ،
ينظرون إلى نجوم الصيف
ثم يسمى كل منهم نجمة باسمه
وينادون على القمر :
أيها الرغيف الساخن ..
تعال إلى مائدتنا.

بسببه ،
نجت الزوجة الخائنة من العقاب ،
بعدما قطعت الرغيف نصفين أمام عينيها الباكيتين
وأقسمت بالنعمة ،
أن عشيقها الذى صادفه الزوج مهرولاً
على سلالم البيت
ليس خارجاً من بابها المصفوق تواً

كيف لا يصدق زوجٌ رغيفاً مقطوعاً نصفين
أمام عينين باكيتين !

باسمه ،
يضغط الديكتاتور على رقاب شعبه
منكساً رءوسهم إلى الأرض

باسمه ،
يصنع الديكتاتور لنفسه قبضة حديدية

بسببه
عرفت البنت معنى السعادة
عندما ظهر فارسُها وسط الزحام ،
مكافحاً بدلاً منها
وكلما مرت بالمخبز ،
تذكرت كيف مسَّ ظهرَها صدرُه
فارتاحت عضلاتُها بين يديه
ورأت السماء زرقاء صافية

بسببه ،
يشعر البائع المتجول بالرضا عن العالم
عندما يجلس على الرصيف
جوار صندوق بضاعته ،
يلتهم الأرغفةَ الساخنة
ويجدد رغبته القديمة فى الغناء

بسببه
تعلم الصبي ذى السنوات التسع
كيف يدافع عن حقه بيديه النحيلتين
حتى قبل أن يقرأ عليه المعلّم من كتاب النصوص :
" ومن لم يزدْ عن حوضه بسلاحه يُهدمِ "

من أجله ،
خرجت البنت ذات الأربعة عشر عاماً
تلميذةُ الثانى الإعدادى ،
من غرفة عائلتهاالجائعة
إلى الخباز

البنت يداها إلى جانبيها
ويدا الخباز الخشنتان تعصران نهديها
ثم تمنحانها عشرة أرغفة

يدا الخباز الخشنتان تجذبان البنت من الثانى الإعدادى
ومن سنواتها الأربع عشرة
وتنزل بالسماء
إلى سقف غرفتها المطلى بالجير

من أجله ،
خرج الصبى إلى القمامة ،
فجرحت قدمَه الحافية كسرةُ زجاج ،
عرج الصبى والتقط لقمةً مغموسةً بدمه

دمهُ أحمرُ وضّاء

من أجله،
خرجت السيدة من عملها
للسير بدلال فى شوارع وسط المدينة .

تسعةٌ وثلاثون عاماً
موظفةٌ حكومية
أمٌّ لثلاثة أطفال
ظلتْ عشر سنوات مخلصةً لزوجها

على وجهها تلمع الأصباغ
على شفتيها ابتسامة واسعة
وفى عينيها إعلان :
ساعة من المتعة
لقاء عشرين جنيهاً
أرجوك
لا أريد أن أتأخر
أولادى عادوا من المدرسة

من أجله ،
سار الصبى تحت المطر
احتمى بأفاريز البنايات
واضعاً الأرغفة الساخنة تحت قميصه
يداه انجرحتا من التشبث بالجدران
وقدماه تلطخا بالوحل
ورأسه غرق بالمطر .

عاد الفارس بالكَنزة الذهبية
رجع البطل الذى قتل التنين فى كهفه ،
وضع الأرغفة الساخنة على الطاولة أمام أمه
وعبر تحت قوس النصر فى الصالة .

من أجله،
توقف الفقراء فى شارعنا عن الحلم بالذهب ،
عن المضاربة فى البورصة
لم يعودوا يحلمون بالسيارات الفارهة
ولا بالنساء الممشوقات
اللاتى اكتسبت بشراتهن برونزية الخلاسيات

فقط، يجلسون أمام بيوتهم فى الليل ،
يضمون قبضاتهم ويكزون على أسنانهم
وهم مغمضو العيون فى انتظاره

من أجله ،
تمسح أمٌّ دمعتها الصامتة
بعد أن سبّها الصبى
الذى تعمل فى بيت أهله

بسببه،
عاد الأب العاطل كسيراً
بعد أن عجز عن اقتراض خمسة جنيهات

خمسة جنيهات تافهة
قادرة على وقف المذابح فى دارفور
ورتق ثقب الأوزون
وإقامة السلام العالمى .

عندما بدأ يضرب أبناءه الجائعين
كانت الموسيقى تتصاعد من غرفة ما
وبيتهوفن الأصم يهدر
تتتتا
تا
تا
تا

وكانت كفا الأب العاطل تهبطان على رأس ابنه المشاكس
وأنفه يرعف دماً،
يضرب وبيتهوفن يتصاعد
تا
تا
تا

كفى أيها العالم
كفى يا بيتهوفن
كفى أيها الأب
نم إلى الأبد أيها الولد المشاكس
وليصعد الرغيف الساخن إلى سمائه السوداء
كلَّ ليل .

II
الخروج إلى الخبز

والدم يحرك كل شىء

لم يلتفت الزحام إلى البنت التى دهمتها نوبةُ الصرع ،
ها هى تتراجع ، ثم تميل أربع خطوات إلى اليسار ،
باتجاه باب البيت المجاور للمخبز ، قبل أن يدفعها
الرجل المهرولُ ..
والدمُ يحرك كل شىء

الرجل ذو السيف طعن الشاب ذا القميص الأبيض
وكانت عينا البنت الأقرب إلى الفتحة التى صنعها السيف
فى بطن الشاب ذى القميص الأبيض،
دفع الرجل سيفه ، ثم سحبه بالسرعة نفسها ،
فوصل رذاذٌ من دم الشاب ذى القميص الأبيض إلى وجه البنت
ووصلت معه نوبةُ الصرع ..
والدمُ يحرك كل شىء

أصابعُ البنت المتشنجة قابضةٌ على نقود الخبز
والمزدحمون أمام المخبز منشغلون بمناوشة الرجل ذى السيف ، بعصى
متفاوتة الطول، و إغلاق جرح الشاب ذى القميص الأبيض ..
والدمُ يحرك كل شىء

فى غمرة انشغالهم ، لم يلاحظ المزدحمون أن البنت التى تهزها نوبةُ الصرع
جريحة من أثر السقطة ،
وعلى وجهها رذاذٌ من دم الشاب ذى القميص الأبيض ،
الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة، مندهشاً ..
والدمُ يحرك كل شىء .

النسوة جميعهن

واصل الرضيع صراخه
غير عابئ بالعيون التى تحدق فيه ،
ولا بالهمهمات التى تطالب بإبعاده
أخرجت الأمُّ ثديها ،وجلست على الأرض تطعمه
فتركت النساء الصف ليظللن عليها ،
وفاز الرجال بأدوار إضافية من الخبز .

النسوة جميعهن ،
المرأة التى لم تنجب
وأم البنين الخمسة ،
من انقطع طمثُها
والبنت التى لم تتزوج بعد ،
كن يشاهدن ، فى حلقتهن الضيقة
كيف يلتقم الصغير الجائع الثدى المعروق
وكيف يبتلع طعامه فى جرعات منتظمة
ويتعرق جبينه
كيف تتأرجح كفُّه الصغيرة التى تلامس ثدى أمه
ويرتخى جفناه ويروح فى نعاس هانىء ،
قبل أن تنهض الأم ورفيقاتها المبتسمات
ليعوضن ما فاتهن من أدوار .

نوعٌ من الهدنة

مع الوحوش التى تطاردنا فى كل مكان
تصبح طوابير الخبز نوعاً من الهدنة
أو الراحة الإجبارية .

قليل من الانتظار
وتنفرج الأسارير
يحكى الرجل الخمسينى عن ابنه الذى أنهى كلية الحقوق
وعمل فى محل للاتصالات لينال عشاءه وسجائره ،
تدمع عينا الرجل الخمسينى وهو يحكى عن ابنه
لكن دموعه سرعان ما تتحول إلى ابتسامة تشجيع
للشاب الذى يليه فى الطابور ،
فى السنة النهائية بكلية الحقوق
ويعمل فى محل للاتصالات
حتى ينال عشاءه وسجائره

بحديثهما يربت كل منهما على كتف الآخر

لا أحد ينام دون عشاء ،
تقول المرأة الريفية بابتسامة لم يحجبها نقابُها الرخيص،
وهى تفسح أمامها لامرأة أكبر سناً منها
لأنها تركتْ ضيوفها دون خبز كاف .

فى الحرب

الحاج عبد الحميد
اثنان وستون عاماً من الكدح
خرج إلى صلاة الفجر
وكان قمر آخر الليل شاهداً

الحاج عبد الحميد أطال السجود
ثم جلس يسبح أمام كشك الخبز المطلى بالأزرق والأبيض ،
فى الحياة متسع لتأمل الألوان الباردة
فى الحياة متسع للتوقيع على كشك الخبز
وتأمل دوامات التراب أسفل جدرانه الأربعة

بالأمس كان الحاج عبد الحميد أول المنتظرين
نال حصته من الخبز
فعرف شعور الفاتحين وقد عادوا إلى أوطانهم
لتكافئهم النساء بأكاليل الغار
وأكواب الشاى بالنعناع ،
لكنه اليوم وقع تحت الأقدام المتشنجة .

فى الحرب ،
لا أحد ينظر تحت قدمية
والمحارب الجيد لا يسقط فى المعركة .

الحاج عبد الحميد فى الثانية والستين
سقط صريعاً تحت الأقدام الجائعة
ولم يعد يحتاج إلى الخبز .

خَجَلْ

بينما ننتظر أن نتقدم فى الطابور إلى الأمام
جاء من يريد الاندساس من الجانب
متجاهلاً ركبتى الشيخ اللتين كادتا تخونانه
وضغط الدم الذى ارتفع عند الجدة المستندة
على حفيدها
والصبى الذى ينهى واجباته المدرسية واقفا

التفتنا إلى اللذين يحاولون الاندساس فى الطابور من الجانب
وصحنا فيهم :
أنتم اللذين زورتم الانتخابات،
كيف تجرأتم ونبشتم القبور
لتسجلوا أصوات الموتى فى كشوفكم
أنتم الذين فى الصحف الكاذبة
وفى الأمن المركزى
اخجلوا

وسرعان ما تراجع المندسون إلى الخلف
مرتعبين من قوة حجتنا

روح الخبز

الابتسامات المشجعة
والنصائح الودودة
من أفضل النعم التى يمكن أن تنالها
وأنت تضع خبزك الساخن ليبرد قليلاً
إلى جوار الخبز الساخن لجارك

السور الواطئ المجاور للمخبز
يمتلئ بآثار آلاف الأرغفة ،
لا مجال للتراب ،
وجارك الأكبر سناً الذى قضى وقتاً أطول
مما قضيت ، فى صفوف الخبز
يعلمك بود كيف تقلّب الرغيف باستمرارعلى الوجهين
ولا تلصق رغيفاً بآخر

عندما تهدأ روح الخبز
يعلمك جارك الودود
كيف تضع الأرغفة بانتظام فى الكيس الذى تحمله
حتى لا تغضبَ عليك النعمة
و تمنحك شهيتك للطعام

القائد

نفد الخبز
بعد هذه الساعات التى قضيناها واقفين
لقد انتظرنا أكثر من اللازم
ماذا نفعل الآن ؟

انفرط الصف، لكن لم يتزحزحْ أىٌّ منّا عن مكانه
كنا نحدق فى كوة المخبز
وكانت النار تخبو والخباز يترك موضعه
والعمال يغتسلون

وبينما يتأهب كل منا للانصراف باحثاً عن حل لنفسه
صاح الصبى ذى السنوات السبع
أعرف مخبزاً فى الشارع الثالث يساراً،
اتبعونى

وتبعناه جميعناً
نساءً ورجالاً ، شيوخاً وعجائز وصبية
كانت خطوات قائدنا الصغير أسرع منا، ببيجامته وابتسامته
وحركة يده التى تحمل الكيس البلاستيكى ، ملقياً إلينا بالأوامر ..
تعالوا ، تقدموا ،
ونحن وراءه ،كتيبة تعود إلى قاعدتها

عندما وصلنا إلى المخبز فى الشارع الثالث يسارا
تركناه ينظمنا من جديد
جميعنا نبتسم للقائد
ونطيع ما يقول .

III

العم سيد والنمر

من الذى لا يعرف العم سيد وعصاه الخشبية الطويلة ؟
بها يزجر النمور فى أقفاصها ،
بها يرقص للأطفال فى السيرك فيضحكون له ومنه
وعليها يستند ويفكر كيف يطعم بناته الخمس.

بعد أن ضاقت به الأرض
بعد أن بكت بناته من الجوع
سأل العم سيد العينين الصفراوين للوحش :
يدى أم قدمى ؟
قدمي أم يدى ؟
ثم اختار أن يحتفظ بيديه ،
بهما سوف يجدل الخوص كما كان يفعل فى سنوات طفولته وصباه .

لا تصفوه بالضعيف
فمن يضع يده بين فكى النمر من أجل نصف جنيه ،
من يزعق فى الوحش فيرعوى ،
من يرعى الوحوش بعصا خشبيةً
لا يوصف بالضعف

*

العم سيد فى صورة بالأبيض والأسود
جوار قفص النمور ،
الابتسامة الكسيرة نفسها ،
تلتصق بشفتيه منذ خمسة وعشرين عاماً ،
يده اليسرى تقبض على رتاج الباب
واليمنى تمسك بعصاه الخشبية ،
لتحدد اتجاه النمور الخارجة من الحلبة إلى قفصها .

ثلاثة آلاف جنيه قيمة التعويض ،
تكفى لأن يعود إلى قريته مع بناته الخمس
ويجدل الخوص أمام بيت أبيه .

لا تصفوه بالأحمق ،
بعد خمسة وعشرين عاماً من التحديق فى عيون النمور
لابد لأبٍ لديه خمس بنات جائعات
أن يكتسب شيئاً من الحكمة .

*

من بين نمور السيرك
اختار العم سيد النمر عنتر ليهبه قدمه ،
يعرفه منذ سبع سنين
عندما كان شبلاً شرساً
يتثاقل أمام سوط المدرب
ولا يعبر حلقة النار إلاّ بالزجر العنيف

رأى العم سيد فى عينيه الصفراوين ،
الدمَ يقطر من عنق الغزالة ،
وظلالَ الحمر الوحشية الغافية عند الفجر
تستشعر الخطر المقترب ولا تعرف اتجاهه

لا تصفوه بالمقامر
من يجمع القروش ليطعم بناته يوماً بعد يوم
لا يعرف ترف المقامرة

*

العم سيد فكر فى بناته الجوعى
ثم جوّع النمر عنتر ،
تراب القرية أحنُّ من خيمة السيرك
مطرُ القرية أرحمُ من برد المدينة
ثلاثة آلاف جنيه قيمة التعويض
كافية لأن يرمم بيت أبيه
و مد قدمه اليسرى بين قضبان الوحش الجائع .

لا تحكموا عليه بعقولكم
لأن لديه عقلاً أيضاً
لا تحكموا عليه بخوفكم
لأنه كان يرتعش من الخوف
لا تحكموا عليه بأحلامكم
لأن لديه منها القليل

*

البنات من حوله يجمعن الخوص ويشذبنه
كوب الشاى ساخن إلى جواره
ويداه تعملان مثل ماكينة
والمواويل تخرج من بين شفتيه عن الصبر

عندما تردد النمر عنتر
زجره العم سيد
اقضم يا كلب
وأطبق النمر عنتر فكيه
على خمسة وعشرين عاما من الشقاء .

*

IV

أنا أحمد البدوى

" أنا أحمد البدوى "
ويضحك ضحكته الخشنة فيتراجع أمامها العمال المنافسون
ليرفع بمفرده عربة الرمل إلى الطابق العاشر

" أنا أحمد البدوى "
واظب على صلاة الفجر طوال الشهر الماضى
وخرج حاملاً فأسه وأزاميله ومطرقته
إلى السوق والشمس والحلق الجاف والجيب الخاوى
والنفس الكسيرة

" أنا أحمد البدوى "
فلاحٌ يعرف كيف يغازل الأرض بفأسه
يعرف الحشائش التى يقتلع
والأخرى التى تنفع الأرض ،
نحاتٌ ،يعرف كيف يلوح بالمطرقة مثل عصا الرقص
ثم يهوى بها على حجر الزاوية فينهار الجدار

" أنا أحمد البدوى "

طوال الشهر الماضى ، لم يعمل سوى يومين

توقف عن صلاة الفجر ،

يقف أمام الجامع ينظر إلى السماء مرددا جملة واحدة :

أنت تعرف

أنت تعرف

فى أذنه بكاء طفله الصغير

وفى عينيه نظرة امرأته اللائمة

اليوم
استيقظ أحمد البدوى قبل الفجر
أطبق يديه على أعناق أطفاله الذين ناموا من البكاء
أسكت صراخ امرأته
ثم سد الباب والنوافذ من الداخل بالخشب والطين
واستلقى جوار عياله
مردداً الجملة التى خرج بها من اللغة

أنت تعرف
أنت تعرف.

الفهرست

- ناسُ القمر الساخن 3
- الخروج إلى الخبز 21
- العم سيد والنّمر 33
- أنا أحمد البدوى 40

صدر للشاعر:

استئناس الفراغ – طبعة خاصة – القاهرة 1993

بين رجفة وأخرى– الهيئة العامة للكتاب– القاهرة 1996

باتجاه ليلنا الأصلى–دار الجديد –بيروت 1997

فتاة وصبى فى المدافن– دار الجديد –بيروت 1999

مريم المرحة –طبعة خاصة – القاهرة 2004

نائم فى الجوراسيك بارك– طبعة خاصة –القاهرة– 2008

له فى النقد الأدبى:

معمار الرؤية : قراءة فى أدب بدر الديب

واقعية "الليالى" بين الحكاية والإعادة

يشرف على إصدار مجلة " شعر" الخاصة بقصيدة النثر بطبعتين ، ورقية وإلكترونية